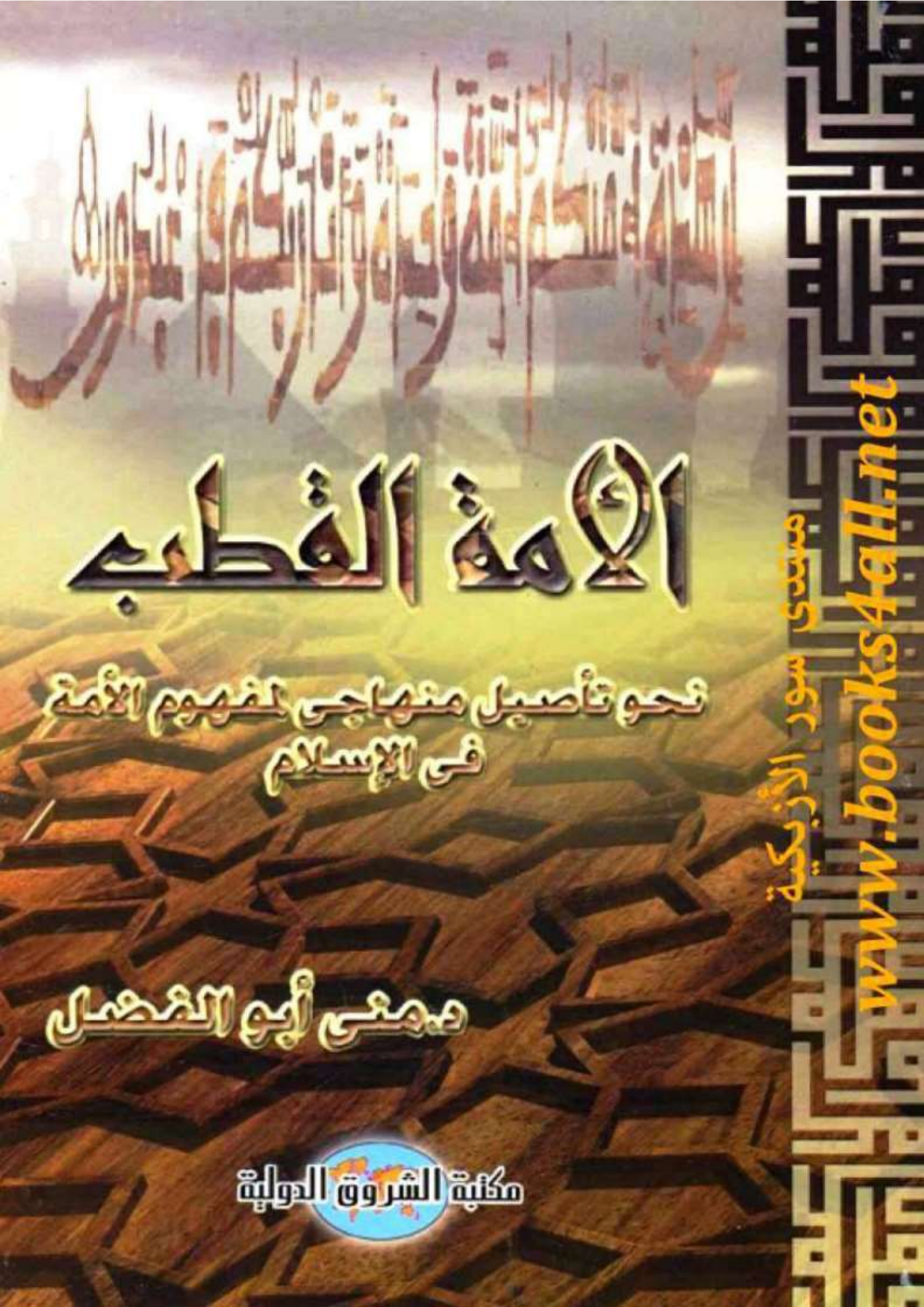
الأمة القطب
نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام
مصطفى أبو الفضل
مكتبة الشروق الدولية
www.books4all.net
جميع حقوق الطبعة الإلكترونية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://www.facebook.com/books4all.net

الأمَّـــــة القطـــب

الطبعة الأولى لمكتبة الشروق الدولية

١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة – أبراج عثمان – روكسي- القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ – ٤٥٠١٢٢٩ – ٢٥٦٥٩٢٩

Email: <shoroukintl @ Hotmail.com >

< shoroukintl @ yahoo.com>

الأمَّـــــــة القـطـــب

نحو تأصيل منهاجي لمفهوم
الأمَّة في الإسلام

أ.د. منى أبو الفضل

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

جامعة القاهرة

مكتبة الشروق الدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾

[آل عمران ١١٠]

المؤلفة في سطور

منى عبد المنعم أبو الفضل من مواليد القاهرة (١٩٤٥م)، وهي صاحبة مدرسة فكرية في المنظور الحضاري الإسلامي للعلوم السياسية والعلوم الاجتماعية.

درست الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، وتخرجت عام ١٩٦٦م بمرتبة شرف، وحصلت على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٧٥م من جامعة لندن

عينت أستاذة بجامعة القاهرة، ثم انتدبت في المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة ١٩٨٦م. عُينت أستاذةً للعلوم السياسية والدراسات الحضارية بجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في فرجينيا عام ١٩٩٦م. ولها العديد من المؤلفات والبحوث بالعربية والإنكليزية، من أبرزها:

- من قضايا تطوير التعليم في الوطن العربي: نحو منهجية علمية لتدريس النظم السياسية العربية.
- الأمة القطب: نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام.
- فقه الواقع والمنظور الحضاري حول مشروع دراسة "فقه الواقع.
- نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير والإسلامي بين المقدمات والمقومات.
- المغايرة بين المعرفيات: "التوحيد عالم الاجتماع الرسالي والنظرية الاجتماعية.
- إسلامية المعرفة كقوة للتجديد الثقافي العالمي أو علاقية المدخل المعرفي التوحيدي بالحداثة.
- نحو تأصيل منهاجي لدراسة واقع النظم المعاصرة في المنطقة العربية.

إهـــداء

إلى شبـاب الأمَّة....

طلبـــة اليــوم....

علمـــاء الغـــد....

بنـــاة المســـتقبل.

المحتـويـات

الموضوع **الصفحة**

• مقدمة د. طه جابر العلواني ١١

• تمهيد: الأمَّة القطب في السيرة والمفهوم ١٧

• مدخل منهاجي ٣٥

• **الفصل الأول:**

– موجبات البحث في العقيدة والدعوة ٤٥

– من معالم المد الإحيائي المعاصر ٤٧

• **الفصل الثاني:**

– موضع الأمَّة في الإسلام ٥٥

• **الفصل الثالث:**

– جدلية الاستقطاب ٦٣

• **الفصل الرابع:**

– حيوية التنشئة الجماعية في الإسلام ٧٥

• **الفصل الخامس:**

– الأمَّة القطب.. الأمَّة الوسط ٨٣

• ختام وتعقيب ٨٧

• الهوامش والمراجع ٨٩

مقـــــدمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد: فيسرني أن أقدم إلى أبناء أمتي كتاباً لطيفاً في حجمه، كبيراً في مدلوله ومعناه، جليلاً في أهدافه. لكاتبة لعلها من أولى الكتاب المعاصرين في تناول هذا الموضوع الخطير الذي تشتد حاجة الأمَّة إلى تناوله تناولاً موضوعياً في هذه الظروف الحرجة، حيث تتداعى على هذه الأمَّة أو بقاياها الأمم طمعاً في الإجهاز عليها، والحيلولة بينها وبين إمكانية التشكل أو النهوض والقيام مرة أخرى. فالكتابة في موضوع "الأمَّة" شديد الأهمية لأن فيه تذكيراً لأبنائها بخَيْرِيَّتِها ووسطيتها وشهادتها على الناس، وكونها قطباً، لا قصعة.. قطباً في قيمتها، وفي مبادئها، وفي وسطيتها، وفي خيريتها. إن ذلك من أنجع الوسائل في إنماء روح الأمَّة وبعث وإعادة الثقة بنفسها إليها؛ في هذه الظروف الحرجة، ومنحها الأمل بأن موقعها الشاغر ما يزال في انتظارها، فلا أحد غيرها يستطيع ملأه، حيث لا تحمل أية أمة من الأمم الأخرى مثل الخصائص التي تحملها، ولا تملك أمة من الأمم مثل المزايا التي تملكها. وإذا كانت قد كبت اليوم فستنهض غداً –إن شاء الله– فإن الجواد قد يكبو، وإن الصارم قد ينبو، وإن الفرج بعد الشدة، وإن مع العسر يسراً، وبعد الفُرْقة الوحدة، وبعد الضيق الفرج –بإذن الله– وبعد الاختلاف الائتلاف، وبعد التقادم التجدد بتوفيق الله.

إن إصدار هذه الدراسة الرصينة في هذا الوقت بالذات يقدم لأبناء الأمَّة، ولشبابها خاصة، ما يزيل اليأس، ويبعث الأمل والرجاء دون استعلاء، ويرسم معالم مهمة في طريق الانبعاث، ويعين على تثبيت الرمال المتحركة التي يتسارع للجري عليها اليائسون الذين فقدوا إيمانهم بالله، وفقدوا معه ثقتهم بأنفسهم، وبشعوبهم وبأمتهم، وأخذوا يجرون وراء القطار

–القطار المزركش المزيَّن المزخرف– يقوده الدجال الأكبر، لعلهم يتعلقون بركابه قبل أن يفوتهم من دون أن يشعروا أن جنة الدجال نار، وناره طريق إلى الجنة.

لقد كَتَبَ في موضوع "الأمَّة" كُتاب متميزون قليلو العدد، لكن الكتاب الذي نقدمه يمتاز في تركيزه على إبراز جانب مهم من الجوانب التي قامت "أمة الإسلام" عليها، ألا وهو جانب "القطبية". فالكتاب يبين لنا المركز الحقيقي "لأمة الإسلام" التي أرسى سيدنا إبراهيم –عليه السلام– دعائمها، وشاد خاتم النبيين محمد ﷺ بنيانها بحيث صارت "أمة الأمم"، و"الأمَّة القطب". والدكتورة منى أبو الفضل –حفظها الله– تقدم لنا في هذه الدراسة الوجيزة مدخلاً تفسيرياً شديد الأهمية لكثير من أحداث التاريخ الغابر والتاريخ المعاصر؛ سوف يكون له أثره في الدراسات الأكاديمية خاصَّة.

لقد اطلعت على كثير من الدراسات في الكيانات السياسية والاجتماعية، واطلعتُ على بعض ما كتب عن "الأمَّة في الإسلام" من زوايا مختلفة، ولعل أهم ما استفدت منه وتأثرت به كتابان: هذا الذي أقدمه "الأمَّة القطب"، وكتاب الشيخ "أبو الحسن الندوي" –يرحمه الله–: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين!؟". والكتابان يكمل كل منهما الآخر، فكتاب الإمام الراحل الندوي يبين أن انحطاط المسلمين وتفكك أمتهم كان خسارة بشرية عامة، وكارثة إنسانية شاملة لم يقف ضررها عند الأمَّة المسلمة وحدها، بل تجاوزها إلى العالم كله. وكتاب "الأمَّة القطب" يمثل تحليلاً وتعليلاً علمياً دقيقاً وموضوعياً لذلك. وفي كلا الكتابين: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين!؟" و"الأمَّة القطب"؛ دعوة ضمنية للبشرية –كلها– لتدرك أهمية موقع هذه الأمَّة للبشرية والجماعة الإنسانية في العالم كله؛ لعلها تتوقف عن محاولات تدميرها، بل تفسح لها مجال الظهور مرة أخرى –إن هي عقلت– لأن البشرية –كلها – لن تستطيع أن تسد الموقع الشاغر الذي تركته بانحطاطها وغيابها. لقد بينت الدكتورة منى بوضوح وجلاء في هذه الدراسة أن مفهوم "الأمَّة" يتضمن مجموعة أمور قد تبدو لأول وهلة مفاهيم مستقلة، لكنها –عند النظر– لا تنفصل عن بناء هذا المفهوم الشرعي بحال. فوحدة الأمَّة واستقلالها، ونهضتها، وعمرانها، وشهودها الحضاري، وقوتها، وولاؤها للإيمان وأهله، وبراؤها من الشرك وأهله، كل تلك الأمور تعتبر مضمَّنة في مفهوم "الأمَّة" بمعناه

الاصطلاحي الذي استعمله فيه الشارع الحكيم –تبارك وتعالى– في نصوص عديدة انعكست على واقع تاريخي زاهر.

وأوضحت المؤلفة كذلك الشبكة الواسعة التي ترتبط بهذا المفهوم، وهي مجموعة أخرى من المفاهيم ذات البعد الإسلامي العميق كالأمانة، والاستخلاف، والشهود الحضاري، والخيرية، والوسطية، والابتلاء، والإعمار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، والإيمان بالله أولاً وأخيراً. وإنه يوم تفقد الأمَّة عنصراً من هذه العناصر تفقد كونها أمة، فهي إن تخلت عن الالتزام بما أنزل الله، أو بعدت عن وحدتها، أو تنازلت عن ولائها وبرائها، أو نأت عن دورها وعن وسطيتها وعن شهودها الحضاري. فقدت الأهلية، وفقدت الشروط التي أهلتها لأن تتصف بأنها أمة بالمفهوم الشرعي، حتى لو احتفظت بلقب "أمة" بالمفهوم اللغوي الجامد.

كما شرحت المؤلفة الفاضلة موقع هذه الأمَّة الإسلامية من الأمم، فموقعها كموقع رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– منها. فموقعها من الأمم هو موقع الشهادة والخيرية والتزكية والتعليم والقيادة. ولا ينبغي أن يغيب هذا عن البال. وموقع رسول الله ﷺ من الأمَّة موقع الشاهد عليها، والمعلم لها، والمربي، والمزكي والمطهر لنفوسها وقلوبها. وهو في الوقت نفسه رؤوف ورحيم بالبشر كلهم. وموقع أمتنا من سائر أمم الدنيا نفس هذا الوقع بالضبط، فهي الشاهدة على الناس والمعلمة والمربية والمزكية للأمم والرؤوفة الرحيمة بها، التي تعمل على إخراجها من الظلمات إلى النور، وتحريرها من الشرك والظلم والضلال والانحراف، وكل ما يقتضيه قيامها بهذا الدور واجب من واجباتها –كلها– بوصفها أمة، وفريضة من فرائض الله –تعالى– عليها.

إن كتاب هذه الأمَّة الكريم –القرآن العظيم– يمثل الإعجاز المطلق، المتحدي للبشر على الدوام أن يأتوا بمثله كلاً أو جزءاً، وسنة رسول الله ﷺ ممثلة موضحة شارحة، فهي ممثلة لأفضل أحكام قواعد تنزيل هذا الكتاب على الواقع المعيش في وقت رسول الله ﷺ، وعلى الدنيا كلها بعد ذلك أن تتأسى بهذه السنة ومنهجها في تنزيل مطلق الكتاب على الواقع النسبي، وأن تتمثلها في خطواتها كلها. وبالتالي فإن مقومات بناء هذه الأمَّة وقواعدها وخصائصها تمثل قبسات من تلك الخاصية المطلقة للنبوة والرسالة التي يمثلها رسول الله ﷺ..

كما تمثل نفحات من ذلك الإعجاز المطلق الذي يتمثل في القرآن العظيم، فلا يمكن إعادة بنائها حين تهدم، ولا يمكن أن تُسْتَحْيَا هذه الأمَّة حين تموت بغير ذلك المنهج الإلهي: "لا يصلح آخر هذه الأمَّة إلا بما صلح به أولها"(•). كما أن تلك المقومات والخصائص التي بنيت هذه الأمَّة عليها لا تقبل زيادة بشرية ولا نقصاناً إنسانياً، كما لا يتقبل التصور الإسلامي شيئاً من ذلك.

وحين يحمل مفهوم "الأمَّة" بتلك الخصائص العرقية والإقليمية بحيث تطغى على خصائص العالمية والشمولية فيها، أو تختزل فيها تلك الخصائص، أو تغير في المفهوم الشامل أي تغيير جزئي أو كلي، فإن ذلك يشكل أعرافاً لا تقبلها طبيعة هذه الأمَّة، وقد تخرج بها عن صفتها الأساسية "أمة مسلمة". وبالقوة نفسها يأبى مفهوم "الأمَّة" الفرقة وضعف الولاء لله ورسوله وللمؤمنين، وضعف البراء من أعداء الله ورسوله والمؤمنين. ويأبى مفهوم الأمَّة كذلك بمفهومه الشرعي الذلة والضعف: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، (المنافقون:٨)، ويأبى الجهل المطبق، والمرض أو الضعف بكل أنواعه وبكل مفاهيمه، لأن هذه "الأمَّة" –كما قلنا– لها دور وموقع لا يمكن أن تؤديه إلا وهي متمثلة بكل خصائص القوة والقدرة وتجاوز العجز. ويأبى مفهوم "الأمَّة" كذلك الظلم والطغيان بكل أشكاله، والاستبداد بكل دركاته.. فإذا وقع شيء من ذلك، كان العمل بكل أنواعه واجباً لتقويم الجبهة الداخلية أو تقدمها. واحتلت البيئة الداخلية وإصلاحها الأولوية الأولى على سائر الفرائض والواجبات. وتحولت فروض الأمَّة أو فروض الكفايات إلى واجبات أعيان وفروض شخصية عينية على الشخصية الفردية كما هي واجبة على الشخصية المعنوية –الأمَّة– حتى تسترد هذه الأمَّة عافيتها ووحدتها، وتبدأ هذه الفروض التي هي فروض مقاومة الأمَّة لعوامل فرقتها، وتميزها بالعزة والرفض القلبي لكل ما ذكرناه، والرفض العقلي الواقعي الواعي لمظاهر الانحراف، ثم استعمال وسائل الدعوة والتوعية بكل أنواعها وأمضى أشكالها لتنبيه وإيقاظ النائمين، وتحذير المغترين، وتنقية وتطهير صفوف "الأمَّة" من المنافقين، أو المشركين أو المندسين أو المخربين، وتمحيصها وتهيئتها للقيام بفرائض التعديل، وحمل قوى الانحراف على قبول ذلك التعديل إن لم تجد كل الوسائل الأخرى، ثم إحاطة تلك المقومات بكل وسائل الحفظ والحماية اللازمة، وفي مقدمتها الحرية

(•) قول مأثور ينسب للإمام مالك بن أنس.

والعدل والشورى، وحفظ كرامة الإنسان وحقوقه ضرورية كانت أو حاجية أو تحسينية، وإقامة ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمفاهيمهما الدقيقة، وبشكل مؤسسي يحول دون توقفه أو قصوره عن أداء دوره لكي لا يتكرر الانحراف في الأمَّة أو يعود إلى الظهور ثانية.

ومن المؤسف أن الوعي الموضوعي على هذا المفهوم "الأمَّة" بالشكل الذي ذكرناه قد أصابه كثير من عوامل الإضعاف في الماضي نتيجة خلل في فهم بعض حلقات منهج التصور الإسلامي. حدث في أعقاب انقلاب قبائلي سريع على الخلافة النبوية التي حولت بشكل قسري إلى ملك عضوض، وانفصل السلطان عن القرآن، وصار العلماء المجتهدون وقادة الفكر في جانب، وأصحاب السلطان في جانب آخر، وأصبح الصراع على الشرعية والمشروعية بين الفريقين السمة الغالبة للعلاقة بينهما. ولم يقف التدهور عند هذا الحد، بل تجاوزه خلال عقود قليلة إلى نوع من الجبرية والتسلط وإهدار الشورى وتحويل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى عمل فردي، وتجاوز الناس تحذيرات رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– المستقبلية ولم يلتفتوا إليها، ومن هذه التحذيرات: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة: أولها الحكم، وآخرها الصلاة»، وقوله: «ألا وإن القرآن والسلطان سيفترقان، ألا فكونوا مع القرآن حيث كان». وإذ تأخرت الأمَّة في إعادة بناء العروة التي انتقضت –وهي "الحكم"– ولم تتمكن من إعادة الخلافة الحقيقية على منهاج النبوة، ورضيت بالشكل، وغفلت عن المضمون.. كان لابد أن يتتابع انتقاض العرى حتى يضيع قوم الصلاة.

وفي غمرة هذا الصراع المرير على الشرعية بين القيادة الفكرية والسياسية، تعرض العقل المسلم لجملة كبيرة من التغيرات والبدع الحادثات، والانحرافات الفكرية في النظر إلى الإنسان والكون والسلطة والحياة الدنيا والدين والأسباب والسنن وغير ذلك.

ولا نجاة للعرب ولا للمسلمين، ولا خلاص لهم إلا بإعادة بناء "الأمَّة" مفهوماً وواقعاً بعد التحلي "بالإرادة"، والتزود "بالفاعلية"، والسعي لتحقيق "الشرعية" والتحقق بها.

إن هذه الدراسة القيمة كانت جزءاً من مشروع فكري كامل كانت الكاتبة الفاضلة تسعى لبنائه وإنجازه في حلقات، وذلك في إطار تدريسها العلوم السياسية في جامعة القاهرة "كلية

الاقتصاد والعلوم السياسية"، حيث بدأت معالمه تتبلور مع بداية القرن الهجري الخامس عشر، وما شهدته المنطقة من أحداث جسام، كانت إرهاصاتها تبشر بوعي جديد، ودور حميد.

لقد شهد القرن الهجري الرابع عشر ظواهر دخول كثير من أقطار الإسلام تحت نير الغزو الأوربي، وانهيار آخر رمز لوحدة الأمَّة "الخلافة العثمانية". وشهد –كذلك– كثيراً من ثورات التحرر، والحصول على استقلال كامل أو منقوص. وكانت آمال المفكرين كبيرة أن يكون القرن الهجري الخامس عشر عصر التحرر الكامل، وإعادة بناء الأمَّة، وتحقيق وحدتها، واستئناف شهودها الحضاري، وحياتها الإسلامية، كان ذلك أمل جمال حمدان، وحامد ربيع، ومحمد بدر، ومنى أبو الفضل كذلك، وكل هؤلاء من أرض الكنانة، ولكل منهم مشروع فكري جدير بأن تتبناه مصر والأمَّة العربية كلها.

إننا ما نزال في الربع الأول من هذا القرن الهجري الخامس عشر، وندلف إلى بدايات الربع الثاني، فلعل ما بقي من هذا القرن يحتضن "اللحظة التاريخية" لنهوض هذه الأمَّة ووحدتها وعودتها إلى موقع الشهود!! ويومئذ يفرح المؤمنون، ويخسر هنالك المبطلون. والله ولي ذلك والقادر عليه.

﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:١٠).

طه جابر العلواني

القاهرة: يناير ٢٠٠٥م

هذا الكتاب

هذا الكتاب يقدم لأبناء الأمَّة، ما يزيل اليأس، ويبعث الأمل والرجاء دون استعلاء، ويرسم معالم مهمة في طريق الانبعاث، ويعين على تثبيت الرمال المتحركة التي يتسارع للجري عليها اليائسون الذين فقدوا إيمانهم بالله، وفقدوا معه ثقتهم بأنفسهم، وبشعوبهم وبأمتهم، وأخذوا يجرون وراء القطار المزركش المزيَّن المزخرف يقوده الدجال الأكبر، لعلهم يتعلقون بركابه قبل أن يفوتهم من دون أن يشعروا أن جنة الدجال نار، وناره طريق إلى الجنة.

لقد كَتَبَ في موضوع "الأمَّة" كُتاب متميزون قليلو العدد، لكن الكتاب الذي نقدمه يمتاز في تركيزه على إبراز جانب مهم من الجوانب التي قامت "أمة الإسلام" عليها، ألا وهو جانب "القطبية". فالكتاب يبين لنا المركز الحقيقي "لأمة الإسلام" التي أرسى سيدنا إبراهيم -عليه السلام- دعائمها، وشاد خاتم النبيين محمد ﷺ بنيانها بحيث صارت "أمة الأمم"، و"الأمَّة القطب".

والدكتورة منى أبو الفضل تقدم لنا في هذه الدراسة الوجيزة مدخلاً تفسيرياً شديد الأهمية لكثير من أحداث التاريخ الغابر والتاريخ المعاصر؛ سوف يكون له أثره في الدراسات الأكاديمية خاصَّة.